التراث العربي: إشكالية الاستحضار والتوظيف

د.بوجمعة الوالي

جامعة سعد دحلب البليدة – الجزائر –

يبقى تحديد مفهوم "التراث" إحدى الإشكاليات التي تشغل بال عدد من الباحثين. لقد تولدت عن تعريف المصطلح تحديدات كثيرة، ومتباينة أحيانا فالمدلول اللغوي لكلمة "التراث" انتقال المال أو غيره إلى الأبناء بعد وفاة الآباء (Héritage) لكن لم ترد كلمة "التراث"، في القواميس القديمة إلا لتدل وتحيل إلى معنى الإرث فقد جاء في القرآن الكريم كلمة تراث دالة على الإرث: أي (الميراث وهو الأمر القديم توارثه الأخير عن الأول)[1] وهو قريب من الذي جاء في قاموس "لاروس" أي ملكية عامة لجماعات أو مجموعة بشرية انتقلت إليها من الأجداد (patrimoine) [2]

يمكن فك التداخل بين الإرث الذي يدل على الميراث الشخصي، الذي يشترك فيه الفرد أو الأسرة، وبين التراث وهو ما يتوارثه مجتمع أو شعب أو أمة مما تركته الأجيال السابقة، فالإرث محصور ضمن الخصوصية الفردية والتراث مفتوح على الموروث العام وتظهر إشكالية أخرى، حين يتعرض الباحث إلى ما يشمله ويحيل إليه هذا التراث، هل يختزل -كمادة تراثية- في جانبه الفكري وحذف وإلغاء جانبه المادي ثم أين تقف حدود الموروث

الفكري في الفلسفة أم في الدين، في الآداب أم في فنون أخرى، الرسم، النحت.....الخ واختصارا لتعدد التعريفات، نتبنى التعريف الآتي، لما يتسم به من شمولية في تحديد المفهوم (التراث هو الموروث الثقافي والاجتماعي والمادي المكتوب والشفوي، الرسمي والشعبي، اللغوي وغير اللغوي الذي وصل إلينا من الماضي البعيد والقريب)[3].

إن كان هذا التعريف يقدم "التراث" في شموليته التي تعرضه على أنه بنية كلية، فذالك لا يقيد المشتغلين بدراسة التراث، ويلزمهم بالتعامل مع المادة التراثية بكل مكوناتها فالغاية من دراسة التراث ليست بنية واختلاف مشارب الدارسين، هي التي تعمل على تجزئة المادة التراثية، وانتهاج سبيل الانتقائية في تحديدها في إطارها الزمني والمكاني ولابد أن نشير هنا، إلى أن استحضار التراث، لا يعني أبدا تلك الجهود التي يقوم بها المشتغلون بتحقيق المخطوطات، وإن كانت لا تقف أحيانا عند حدود التحقيق بإضافة بعض التعليمات والشروح التي لا ترقى إلى مستوى الأعمال الفنية، لتنحصر داخل دائرة القراءة الاستنساخية، فلا تخرج عن الحدود التي وضعها صاحب النصف القراءة التي تتعامل مع النص التراثي، هي قراءة تخضع لسلطة التأويل، حتى وإن ذهبنا مع من يعتقدون بأن لا وجود لقراءة بريئة "حيادية" (قراءة لا تساهم في إنتاج المقروء، فمثل هذه القراءة لا وجود لها، و إذا وجدت فإنها النص ذاته بدون قراءة)[4].

ظاهرة القراءة إذن تخضع إلى رغبة في إحداث تعديل ما في النص أو ملء الفراغات التي تركها النص قصدا أو بغير قصد. لكن قراءة النص التراثي ليست كقراءة النصوص الأخرى فالنص التراثي يتميز بمده الحضاري الذي يقيم جسر التواصل بين الماضي والحاضر.... فكيف ينظر إلى هذا الموروث الفكري؟ تختلف وتتضارب الأفكار والآراء لدى المثقفين في تعاملهم مع التراث فمنهم من ينظر في التعامل مع المادة التراثية على أنها لا ينبغي أن تخرج من كونها قضية الماضي لذاته أو كونها إسقاطا للماضي على الحاضر إلى كونها (قضية الحاضر نفسه وذلك من خلال رؤية الحاضر في حركة ضرورية تتفاعل في داخلها منجزات الماضي وممكنات المستقبل تفاعلا دينامكيا تطوريا صاعدا).[5]

وعلى هذا النمو يصبح فيه الماضي متحركا في حاضر معيش على الهيئة التي يمكن معها الحديث على أن النص التراثي يخرج عن سيطرة الظروف الاجتماعية والتاريخية التي أنتجته إلى سيطرة طبيعة القراءة الجديدة، أين تتحول معها النصوص التراثية المقروءة إلى مادة نصية قابلة (للتشكيل في أي صورة يريدها القارئ، كأن هذا المقروء لا وجود له في ذاته، ولا علاقة له بأنساقه التي تحدد قدرته على الانقراء، فهو محض إمكان حائم في الهواء، أو دال هائم في التاريخ ينتظر مدلوله الذي يخلعه عليه القارىء لا يدرك سوى ما يعطيه)[6].

بهذه الصورة تتقدم القراءة في شكلها التعددي الذي يفرضها القارئ المتشكل بطابع الخلفية المعرفية والاديولوجية، فقد تنوعت إلى قراءات ذات اتجاهات تنطوي على القصدية التي انبثقت عنها موافق متباينة من إحياء التراث.

التيار السلفي:

يدعو أنصار هذا الموقف للرجوع إلى التراث والتحلي بقيمه كردة فعل لمجابهة مفاهيم ومناهج النقد الغربية، التي يرون فيها خطرا يهدد بطمس معالم المجتمع العربي الإسلامي، وتعتقد هذه الفئة أن الخطر قادم من الغرب الساعي وراء تنفيذ مشروع الهيمنة الفكرية وفرض نمط ثقافي غربي على المجتمعات العربية، وهيئات لخطتها بعض المستشرقين وفئة من المثقفين العرب الذين اشتغلوا بإحياء التراث العربي بغرض التشويه والهدم في محاولة إبراز الجوانب المنحرفة فيه وتغليب القيمة الفاسدة لتجدد في ذهن القارئ قيمة هينة استهجانية فيتحقق هدف التغريب (الغزو) والاستلاب الثقافي وتعمل هذه الصورة المشوهة على الارتباط بالتراث وعلى ألا (تحرض على إحياء شيء من التراث إلا ما اتصل بالشبهات والزنادقة وشعراء الغزل الحسي والكتب الحافلة بالمفاهيم الواحدة سواء من الثقافات الفارسية أو الهندية القديمة أو اليونانية الإغريقية)[7].

كان "مصطفى صادق" الرفاعي أحد أشهر الحاملين سواء الدفاع ومجابهة دعاة التحرر من القديم والاستحقاق بعلو وسمو المكانة التي يحتلها الأدب العربي بين الآداب الأخرى، كما يشتهر "طه حسين" في الاتجاه المعاكس أشهر الأدباء في إحداث ضجة إعلامية بإصدار كتابه الذي صدم به القارىء العربي الموسم "في الشعر الجاهلي" سعى فيه إلى الحكم بأن الجاهلي، في معظمه، متحول وضع في العصر الإسلامي الأموي متبعا في ذلك منهج الشك الديكارتي.وقد يكون موقف "طه حسين" هذا مصدره الوقوع في مجال سحر الحضارة الغربية التي تشبع بها حد الانبهار فلم يعد ينظر إلى التراث الغربي الذي بدا معه الفكر العربي صغيرا مستنسخا من آداب الغرب. و الواقع أن أنصار التيار الداعي إلى ضرورة العودة إلى التراث لم يرفضوا الجديد لذاته وإنما كان رفضهم له بسبب ما يحمله من الآراء وأفكار غايتها الهدم والتدمير وقطع الصلة بين ماضي الأمة العربية وحاضرها.فالتراث العربي ليس تراثا ثابتا (ولا تراثا جامدا، و لكنه ميراث متفاعل لم يتوقف عن الحركة و لم ينفصل تاريخيا على النحو الذي انفصل فيه اليونان عبر أوربا الغربية في عصر النهضة)[8] إنه تراث يتميز بقابلية الحركة والتحول إذا صادف الباحث الذي يملك قدرة البحث والكشف عن مواطن تلك الحركية التي تضمن له طريق الرحلة إلى الماضي والعودة إلى الحاضر.

التيار الرافض:

يمثل التراث، عند أصحاب هذا الموقف، الماضي المختلف الذي ينبغي الانفصال عنه والقطيعة الكاملة معه ورفض أية دعوة للتعامل معه فهم يرون المادة التي أوقفت التاريخ واستوقفت معها القارىء، واستهجنت فكرة أن مستقبل البشرية يبدأ من ماضيها و(أن التراث، ينتهي إلى زمن مضي)[9] يذهب أنصار هذا التيار إلى تبني فكرة حبس التراث في ماضيه وبتر أية صلة تربطه بالحاضر الذي يختلف عنه في الزمن والنشأة يبرز (أدونيس) الذي اختزل التراث العربي في جانبه الديني المتزمت منه خاصة، ليعلن بالصوت العالمي شعار الهدم والتدمير الشامل للتراث العربي ودفنه في حدود الزمن الماضي، حتى تسهل عملية تشغيل عجلة النهضة (بما أن الثقافة العربية يشكلها الموروث السائد ذات مبنى ديني أعني أنها ثقافة إتباعيه، لا تؤكد الإتباع وحسب وإنما ترفض الإبداع وتدينه فإن هذه الثقافة تحول، بهذا الشكل الموروث السائد، دون أي تقدم حقيقي ولا يمكن، بتعبير آخر، كما يبدو لي أن تنهض الحياة العربية إذا لم تتهدم البنية التقليدية للذهن العربي، وتتغير كيفية النظر والفهم إلتي وجهت. الذهن العربي وماتزال توجهه).[10] الدين -عند أدونيس- يمثل بنية التراث العربي، يقف حائلا دون أي تقدم ينقل المجتمع من سكونية "الثابت" إلى حركية" المتحول"، والنهوض بالمجتمعات العربية وتخطي مرحلة الانغراس في الماضي، يشترط على

رأي أدونيس- الدعوة إلى الانفصال عن الماضي وإعلان التمرد على سلطة النموذج التقليدي المحصن بالموروث الديني لكن هذا لن يتحقق مادام هدم بنية التراث مشروط بنسف الذهنية التي ترتبط مع التراث في علاقة جدلية..هكذا يستقر رأي أدونيس عند إمكانية تغيير الوضع الراهن، بمعنى استحالة الحركة لتحقيق النهضة وتحرير الإنسان العربي من عقلية المجتمعات السلفية تفتقد هذه النظرة إلى التراث عامل الموضوعية عند اختزالها التراث العربي في جانبه الديني المتطرف وهي بذلك (تخضع للإسقاطات العقلية والميزاجية، المنقطعة عن الدين الواقعي فهي من ثم صورة مشوهة، تفتقد الإبعاد والعلاقات الحقيقية، فيما تقود إلى نظرة مغلوطة)[11]

الموقف التوفيقي:

يتميز أصحاب التيار المعتدل (التوفيقي). بموقفهم الذي يجرد التراث من صفة القداسة التي ألبسه إياها التيار السلفي المحافظ، لكن دون تبني نهج الحداثيين في دعوتهم لتحطيم صنمية التراث ونسف أسسه، كي يقام على أنقاضها قواعد النهضة الحداثة.

يتميز أنصار الموقف التوفيقي بنظرتهم إلى المادة التراثية نظرة ناقدة، متفحصة تهدف إلى العمل على فرز التراث وإخضاعه إلى عملية الانتقاء (فما كل تراث ينبغي إحياؤه بمعنى أن يسري في حياتنا العصرية)[12] فقراء التراث عند هؤلاء ينطلق من "موقع تقدمي" — بالمعنى العام — يدعو إلى "إحياء" أو "تجديد" أو

"إستلهام" ما يراه قيما "تقدمية" في التراث العربي، تحضى على العقلانية وتعتد بالإرادة الإنسانية، وتعلي من قيمه "المصلحة" فيما تتعارض مع النصوصية، والظاهرية، والغيبية والجبرية)[13]

ليس كل التراث مادة صالحة لمواكبة حياتنا المعاصرة، فالظروف التي أفرزت تلك المادة تغيرت، وتغير معها المجتمع المعاصر الذي لا يملك الميل والاستجابة والرغبة في التعامل مع هذا الميراث (فحياتنا اليوم وما تواجهنا به من مشكلات أساسية لم يعد يصلح لها ما قد ورثناه من قيم مبثوثة في تراثنا، لسبب بسيط، هو أنها لم تكن هي نفسها المشكلات التي صادفت أسلافنا حتى نتوقع منهم أن يضعوا لها الحلول)[14]

هذا موقف "زكي نجيب محمود" من بعض القيم التي ورثناها، فمن الطبيعي أنّ تغير بعض قيمه، فكيف يرى الفيلسوف "زكي نجيب محمود" التعامل مع التراث في عصر تتجاذبه تيارات متضاربة في موقفها من التراث: سلفي يدعو إلى التمسك بالقيم في مواجهة التغريب، وحداثي يرفض الماضي ويدعو إلى اقتفاء أثر حضارة الغرب (فإما أن يختار حياة فكرية تنبض بمشكلاته وأزماته.. لكنه في هذه الحالة يكون في حياته الفكرية متسولا.. وإما أن يلوذ بأصالة آبائه فيما خلفوه من إرث عظيم، لكنه في هذه الحالة الثانية مضطر أن يقضي حياته في متحف الآثار النفيسة، فلا تعود له صلة.. بدنياه، في كلتا الحالتين يحس الكل مرارة الغربة، فلا هو بين أهله إذا شرب من ينابيع الثقافة الأوربية، ولا هو غني بنبض حياته إذا قفل راجعا إلى ثقافة آبائه)[15]

بين هذين الاتجاهين يأتي موقف زكي نجيب محمود قائما على الانتقائية والنفعية، فالتعامل مع الماضي والحاضر عنده تعامل براقماتي يتماشى مع ما تستلزمه الحياة المعاصرة (فإذا كان عند أسلافنا طريقة تفيدنا في معاشنا الراهن، أخذناها وكان ذلك هو الجانب الذي نحييه من التراث، وأما ما لا ينفع نفعا عمليا تطبيقيا فهو الذي نتركه غير آسفين، وكذلك نقف الوقفة نفسها بالنسبة إلى ثقافة معاصرينا من أبناء أوروبا وأمريكا).[16]

هكذا يلتقي الحاضر مع الماضي عند زكي "نجيب محمود" في دائرة يكون فيها الماضي تراثا متوائما مع الحاضر ومشاركا في تقديم ما يعين على إيجاد الحل لإشكاليات الواقع العربي، وما يطاوعنا عندما نخضعه للتطبيق العلمي.

يبقى في النهاية أن أساس التعامل مع التراث يقوم على معرفتنا له معرفة علمية تعيننا على استيعاب مختلف أبعاده واكتشاف القوانين التي تحكم هذه الأبعاد وأن استحضار التراث عملية تسعى إلى تجديده، وتجديده يكون بقراءة ناقدة تستخلص النافع منه وتطرح مالا يخدم واقعنا المعيش فالمناهج النقدية الحديثة، لا تنصف النص التراثي —على الخصوص– عندما تعزله عن سياقه الاجتماعي والتاريخي، وتسقط الظروف المحيطة به.

الهوامش

1- مختار القاموس – طه أحمد الزاوي، الدار العربية للكتاب ليبيا تونس (1978).

2 – la rousse.

3 – محمد رياض وتار – توظيف التراث في الرواية العربية، إتحاد الكتاب العرب دمشق (2002).

4 – مجلة فصول عدد 63–سنة 2004–ص (78).

5 – نفس المرجع (81).

6 – جابر عصفور – قراءة التراث النقدي – هـ-م-ع-ك-(2006) ص (82).

7– أنور الجندي، خصائص الأدب العربي دار الكتاب اللبناني بيروت ص (196).

8– نفس المرجع(38).

9 – توظيف التراث(23).

10– رفعت سالم بحثا عن التراث العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب 2006 ص (65).

11– بحثا عن التراث ص (72)

12– زكي نجيب محمود، تجديد الفكر العربي – دار الشروق ط (7) (1982) ص (149).

13– بحثا عن التراث ص (21).

14– تجديد الفكر العربي ص(73).

15 – نفس المرجع ص (98) – (99).

16 – نفس المرجع ص (18)